(٤) الكتـــاب الرابـــــع

كتاب شواهد الصنع والدلالة على وحدانية اللّه وربوبيته

oberkandl.com

(٤) الكتـــاب الرابـــــع

كتاب شواهد الصنع والدلالة على وحدانية الله وربوبيته

ويشتمل على خمسة أبواب :

١-باب الدلالة على الله، عز وجل.

٢-باب الدلالة على صنع الله فى الحيوانات.

٣-باب الدلالة على نفى الصفات عن الخالق والدليل على قدمه.

٤-باب الدلالة على نفى الصفات عن الله فاطر السموات.

٥-باب الدلالة على التعبد.

obeikandi.com

يتلوه كتاب شواهد الصنع
والدلالة على وحدانية الله وربوبيته وهو الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يعذب من حمده، ولا يضل عن الهدى من أرشده، ولا يخيب رجاء من قصده، ولا يذل من نصره، ولا يضل سعى من شكره، ولا يعمى عن الحق من بصره، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، شهادة من أيقن بوحدانيته، وتعرض لعفوه ورحمته وجوده وكرمه ورأفته، وأقر ملكته، وتخضع لعظمة سطوته، وانقطع إليه بكليته، وأخلص قلبه لمحبته، وانقاد لأمره وطاعته، وتاب إليه من خطيئته، واستعين به على نصيحته، وأرغب إليه فى مودته، وإلهام رشده وحكمته، وصنع ودبر بمشيئته، ثم أوصل إليهم العلم بربوبيته، بما أظهر لهم من أعاجيب فطرته، وشواهد صنعه وآياته.

١- باب الدلالة على الله، عز وجل

٦٩/قال المهدى لدين الله/ الحسين بن القاسم، لوات الله عليه، إن سأل سائل مسترشد، أو قال قائل ملحد : **ما الدليل على الله رب العالمين؟**

قيل له، ولا قوة إلا بالله : اعلم أيها السائل أنا نظرنا الإنسان، فإذا هو أقرب الأدلة على نفسه، فلم يخل عندنا من أحد ستة أوجه لا سابع[1] لها :

---

(١) فى الأصل أ : شائع.. وما ذكرناه هو الصحيح .. يؤيده ما جاء من تصويب فى الهامش حيث قال المصحح له (صوابه: سابع) وهذا مما يدل على جهل كاتب هذا

١- إما أن يكون خلق نفسه. ٢- وإما أن يكون قديماً لم يزل.

٣-وإما أن يكون حدث[1] لعلة من العلل. ٤- وإما أن يكون هملاً رسلاً لا من علة ولا من خالق.

٥-وإما أن يكون متولدًا، لم يزل نطفة من إنسان، وإنساناً من نطفة، إلى ما لا نهاية له، ولا أصل ولا غاية ولا أول.

٦- وإما أن يكون من خالق محدث قديم حى.

فإن قلت : إنه قديم لم يزل فهذا محال؛ لأنا وجدناه بعد العدم.

وإن قلت : إنه أحدث نفسه. فهو محال؛ لأنا وجدناه فى حال كماله وبلوغه وحياته، عاجزًا عن تحسين القبيح من صورته، فعلمنا أنه فى حال بطونيته وموته، وغفلته وقلته أعجز وأضعف؛ لأنه إذا عجز فى حال الكمال، فهو فى حال الضعف أحرى بالعجز.

وإن قلت : إنه حدث من علة من العلل. فهذا محال؛ لأن العلة لا تخلو، فى حال إحداثها له، من وجهين : إما أن تكون مواتاً، وإما أن تكون جسماً حيواناً.

/٧٠ فإن كانت حيواناً، فيستحيل يدبر الحيوان مثله، إذ الحيوان مصنوع عاجز/ عن الصنع مصنوع، وإن كانت العلة مواتاً فيستحيل أن يصنع الموات إنساناً محكماً مدبرًا، مصورًا حكيماً عالماً، إذ الموات لا يعى نفسه، فضلاً عن فعل الحكمة البالغة والنعمة السابغة.

الكتاب) والحقيقة قد كان قاسياً على الفاسخ بلا مبرر.. حيث نرى أن الناسخ بذل فى هذا الكتاب أقصى وسعه من كل الوجوه.

(١) فى أ : حدث.

وإن قلت : إنه حدث بالتولد نطفة من إنسان، وإنساناً من نطفة، إلى ما لا نهاية له ولا أصل، ولا بدؤ، ولم يزل شئ من شئ. فهذا محال؛ لأنك قد أقررت بما شاهدت من حدثه، ثم نقضت يقينك بالظن الكاذب. فقلت : لا أصل للمحدث، ولا بدؤ!.. وهذا المحدث لم يزل شيئاً.. فقولك : محدث. يقين، وقولك : قديم. ظن.

- **ودليل آخر**؛ أنا نجد فى هذا المحدث أثار الحكمة بعد عدمها، ويستحيل أن يكون الحكمة الحادثة قديمة أزلية.
- **ودليل آخر**؛ أنا نظرنا الخلق، فإذا هو قد أكمل وأحكم، وأنعم عليه وأكرم، فعلمنا أن الإحكام والإكمال لا يكون إلا من مكمل محكم، وأن الكرامة والنعمة، لا يكونان إلا من مكرم منعم.
- **ودليل آخر**؛ أنا وجدنا الإنسان فرعاً، ولا بد لكل فرع من أصل، ويستحيل فرع من غير أصل.
- **ودليل آخر**؛ أنا وجدنا الإنسان ينسب إلى ذكور وإناث؛ فإذا أصله على قسمين، وللقسمين نهاية وغاية.
- **ودليل آخر**؛ يدل على الأصل والفرع من الحدود أن الموت وقع عليهم، فلم ٧١/ يخل من أحد ثلاثة أوجه : إما أن يكون وقع على جميعهم[1]/ أتى به الأول منهم والآخر، وإما أن يكون وقع على بعضهم، وإما أن يكون لم يقع على أول منهم ولا آخر.
- **فإن قلت** : لم يقع على أحد، فأوجدنا جميع جدودك الأحياء الأولين!
- **وإن قلت** : بل وقع على بعضهم، فأوجدنا الأوائل الباقين أهل القدم منهم!

---

(١) فى الأصل : جميع.

- **وإن قلت** : بل وقع على أولهم قبل وقوعه على آخرهم. فهذا يدل على أن الإنسان قد وقع عليه الموت.
- **ودليل آخر** : لما وجدنا الإنسان فرعاً حياً، والحدود أصولاً أمواتاً، لم يخل الموت من أن يكون وقع على الأصل كله أو لم يقع. فلا يجد بداً من أن يقول : بل وقع على كل ذكر وأنثى من الجدود والجدات. وفى إقراره ما كفى[1]، إن أنصف عقله.
- **ودليل آخر**؛ إن قال : ما أنكرتم من أن يكون لم يمت من هذه الأصول، إلا وقبلها أموات إلى ما لا نهاية له؟!
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : أو ليس قد تقدم فيما مضى من كلامنا، أن قولك هذا محال؛ لأنه ظن، وحدوث الحكمة والنعمة والرحمة، تدل على المحدث الحكيم المنعم الرحيم، بأيقن اليقين وقبول العقول، أولى من قبول الظن.
- **ودليل آخر**؛ أنا قد بينا لك – أيضا – أن قولك متناقض فاسد؛ لأنك أقررت بالحدث، ثم نقضت ذلك بقولك : قديم. والمحدث لا يكون قديماً، كما لا يكون القديم محدثاً.
- ٧٢/ **ودليل آخر**؛ لا يخلو قولك : لا نهاية/ للأموات. من أحد ثلاثة أوجه : إما أن تكون عنيت جميع الأموات، وإما أن تكون عنيت بعضهم، وإما أن تكون ظننت ذلك ظناً وتوهماً.

فإن كنت ظننت ذلك ظناً، فاليقين أولى بالاتباع من الظن، والحق أولى بالتصديق من الباطل، والتعليق بالخير أولى من المقام فى الخير؛ وإن كنت

---

(١) فى : كنا.

أردت بقولك : لا نهاية. تريد بعضهم، فهذا محال؛ إذ لا فرق بين أولهم وآخرهم فى وقوع الموت عليهم، وانقطاع، آجال جميعهم وتصرم الكل منهم. وإن كنت عنيت بقولك : لا نهاية جميع الأموات، فهذا محال؛ لأن الموت وقع على الكل، وللكل نهاية وغاية، ألا ترى[1] أن الموت قد حوى[2] الجميع، فلم يغادر منهم أحدًا، ولم يقع الموت على الفرع، حتى تضمن أصله؛ لأنه لم يفن الفرع حتى أفنى الأصل قبله، ولم يفن بعض الأصل، بل أفنى[3] كله.

- **وإن قلت** : إنه حدث من غير محدث، ولا من علة هملا رسلاً. فهذا من أصول المحال، وأبطل الباطل، وأفسد المقال؛ لأنه إذا حدث من غير علة ولا محدث، لم يخل من أن يكون من العدم، أو من نفسه.
- **فإن قلت** : إنه حدث بإحداثه لنفسه. فهذا محال؛ لما قدمنا من فساد ذلك.
- **وإن قلت** : إنه حدث من العدم. فهذا محال بين الفساد؛ لأن العدم لا يوصف بالإيجاد؛ لأن العدم لا شئ، والفاعل لا يكون إلا موجوداً مدبرًا حكيمًا مقدرًا؛ ٧٣ / لأن قولك : لا يحدث شيئاً .نفى للمحدث، والمحدث[4]/ لأن لا شئ عدم، والشئ وجود، والعدم ليس بعامد ولا معمود، ولاشئ سوى اللفظ مقصود.

وإنما قولنا : عدم. نريد النفى بهذا الاسم؛ وإن كان هذا المحدث عدماً – قبل حدوثه – فالعدم لاشئ، ولا شئ يكون شيئاً بغيرشئ؛ لأنك إذا قلت :

---

(١) فى أ : ترا.
(٢) فى أ : حوا.
(٣) فى أ : فنا.
(٤) يبدو أن هناك نقصا فى : أ.

معدوم يعدم بمعدوم نفيت الجميع، إذ كله باطل محال، وعبث من صاحب المقال، وإلا فما الذى جعل وجود المعدوم أولى من عدمه؟.. وما جعل حدوثه أولى من تركه؟!..

فإن قلت : إن ذلك من أجل أنه متروك. فالمتروك متروك.

وإن قلت : من غير الترك. فذلك الفاعل الحكيم الجاعل المنفصل بالتكوين، الخالق بغير معين، الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، الواحد الأحد، المنفرد الصمد، الذى لا إله سواه، ولا أحد حواه، ولا عين تراه ولا له مثل ولا نظير، ولا وزير ولا نصير، ولاشريك ولا مشير؛ إلهنا وسيدنا وحبيبنا ومعتمدنا، وربنا وخالقنا، ومنشئنا ورازقنا، من لا تحصى آياته، ولا تنقطع دلالاته ولا تعد نعمه ولا يتناقض علمه، ولا يستجهل حلمه، ولا يدركه نظره، ولا يحويه قطر، ولا يكتنهه[1] طمير، ولا يحده مصير، ولا يعجزه تدبير.

٧٤/ **ودليل آخر؛ لو حدث لعلة**، لم تخل تلك العلة من أحد وجهين : إما أن يكون جسمًا، وإما أن تكون عرضًا؛ فإن كانت جسمًا فالجسم/ محدث ضعيف عاجز، وإن كانت العلة عرضًا، فالعرض أعجز من الجسم؛ لأنه لا يوجد بوجود الجسم، ولا يقوم إلا بقوام الجرم، وما لا ينفك من الجسم، ولم يكن قبله فهو، بغير شك، فى الحدوث مثله، وذلك أن الجسم لا يخلو من أحد وجهين : إما أن يكون ساكنًا، وإما أن يكون متحركاً، وأى المعنيين كان فيه، فهو يدل على حدثه؛ لأنه إن كان ساكناً فسكونه على ضربين : سكون ماض وسكون مستقبل، فالسكون الماضى يدل على مبتدأه، والسكون المستقبل فقد ناهاه؛ لأن ما مضى

---

(١) أى يكتشف حقيقته وجوهره ويبلغ الغاية فيه.

من السكون له آخر، وما كان له آخر فله أول، ويستحيل آخر بلا أول؛ لأن آخر السكون هو أقل قليل الأوقات، وما مضى منه فهو أوله الكثير.

وذلك السكون الماضى، الذى هو بزعمهم قديم، لا يخلو من أن يكون عدم كله لم يعدم، فإن قالوا : إنه غير معدوم. فهذا محال؛ لأنه قد سكن من الدهور والأزمان ما لا يحصى[1] من ألوف السنين؛ وألالوف فقد عدمت، ولم يعدم آخرها إلا بعد عدم أولها، وإذا صح عدم الجميع، فقد صح تناهى السكون الماضى؛ لأن العدم قد وقع على أوله وآخره.

وإذا صح أن له أولاً، فقد بطل قدمه، وثبت حدثه، وإذا بطل قدمه وثبت حدثه، فقد صح حدث الجسم إذ لم يسبقه/ ولم يتقدمه[2]. ٧٥/

ودليل آخر؛ قالوا : لما نظرنا إلى الجبل ساكنا غير زائل، علمنا أنه لم يسكن وقتاً، إلا وقبل الوقت وقت، إلى ما لا نهاية له.

وهذا محال بين الإحالة عند من عقل؛ لأن سكون الجبل على قسمين : قسم قليل وقسم كبير، فالقسم القليل موجود وهو المستقبل، لأنك إذا نظرت سكونه انتظرت أن يسكن بالمشاهدة أقل مما سكن قبل ذلك فيما مضى من الدهور؛ لأنه قد سكن فيما مضى ألوف سنين لا تحصى[3]، فأنت قد شاهدته؛ لأنه موجود ولم تشاهد الألوف؛ لأنها عدمت كلها وذهب أولها وآخرها، وللكل نهاية وغاية.

---

(١) يقصد الوثوب أو الدهاء أو الذكاء.
(٢) فى أ : يحصا.
(٣) فى أ : تحصا.

وإذا صح تناهى السكون وانقطاعه، وعدم آخر السنين بعد عدم ما قبلها، فهو على ضربين معدومين سكون قبل سكون، وسكون بعد سكون، وكل ذلك قد مضى وتضمنه العدم والفناء[1]، وما صحت نهايته، وعدم أوله وآخره، فله أول معدوم، وما كان له أول فهو محدث، وإذا صح سكون الجبل، فالجبل محدث، إذ لم يسبق سكونه بزعمهم.

ودليل آخر ؛ إذا صح أن لسكون الجبل أولاً قد عدم، لم يخل ذلك السكون الأول من أن يكون قليلاً أو كثيراً؛ فإن كان قليلاً فأقل السكون بعض/ ٧٦/ساعة، وإن كان كثيراً، فالكثير من السكون لا يكثر إلا بعد قلته، ولا يزيد إلا بعد نقصانه، ولا يوجد إلا بعد عدمه، ولا يوجد آخره إلا بعد عدم أوله، وأوله أقل القليل.

ودليل آخر؛ إذا كان الكثير من سكون الجبل لا يوجد إلا بعد عدم، فالقليل أحرى بأنه لا يوجد إلا بعد العدم، وإذا عدم جميع ما مضى منه، فالعدم قد وقع على الكل والفناء قد تضمنه، وحوى أوله، قبل أن يحوى آخره، وإذا حوى الآخر الكثير لم يكن ذلك إلا بعد أن مضى على الأول اليسير.

ودليل آخر؛ إذا قلت : لا أول لسكون الجبل. سألناك : هل له آخر؟
فإن قلت : ليس له آخر. جحدت الجميع.
وإن قلت : بل له آخر بلا أول. سألناك : هل قبل الآخر سكون أم لا ؟
وإن قلت : ليس قبله سكون. أو جبت حدثه.

---

(١) فى أ : الفنا.

وإن قلت : قبله سكون. سألناك : أهو موجود أو معدوم؟

فإن قلت : موجود. أحلت؛ لأنك لا تجد سكونه ألوف سنين فى ساعة واحدة.

وإن قلت : بل هو معدوم. أوجبت عدم الجميع.

ودليل آخر؛ إذا قلت : لا نهاية للمعدوم. سألناك : هل عدم كله أو بعضه؟

فإن قلت : لا كله ولا بعضه. جحدته ونفيته.

وإن قلت : عدم بعضه. سألناك : أين الباقى من ما مضى ألوفه؟!

٧٧/ **ودليل آخر**؛ إذا قلت : لم/ نعدم من سكون الجبل شئ، إلا وقد عدم قبله شئ، إلى ما لا نهاية له، سألناك : أتريد بقولك : لا نهاية له. الكل من المعدومات أم البعض؛ أم لم ترد كلا ولا بعضا؟.

فإن قلت : لم أرد كلا ولا بعضا. جحدته، وأبطلت ما بالقدم وصفته.

وإن قلت : عنيت وأردت بعضه. فالبعض[1] قسم محدود متناهى.

وإن قلت : بل عنيت وأردت وذكرت بالقدم، وقصدت الكل من المعدوم. فقد ناقضت قولك عند أهل العقول؛ لأن الكل المعدوم قد تضمنه القدم، فلم يغادر منه طرفة عين، ولا وهم.

ودليل آخر؛ إذا قلت : إن القدم وقع على الماضى من سكون الجبل كله، لم يخل هذا السكون المعدوم من أن يكون وجد جملة واحدة معا فى ساعة واحدة، أو وجد كثيره بعد قليله، وآخر بعد أوله، أو وجد قليله بعد كثيره، أو لم يوجد أى ذلك.

---

(١) فى : بالبعض.

فإن قلت : لم يوجد شئ مما ذكرت. جحدت ما لا يتجحد، وما لا ينكره ممن عقل أحد.

وإن قلت: بل وحد قليله بعد كثيره، وكثيره بعد قليله. أصبت وجعلته عدداً معدوداً متناهياً محدوداً، والعدد القليل والكثير لا يوجد الآخر منه إلا بعد الأول، ولا الاثنين إلا بعد الواحد، وذلك يدل على سبق قليله لكثيره، إذ لا يوجد ساعة /٧٨/ إلا بعد نقصانها، ولا/ تكثر إلا بعد قلتها.

وإن قلت : بل وجد جميع ما مضى فى ساعة واحدة. أقررت بحدثه وأحلت؛ لأن الماضى من الأزمان ساعات لا تحصى، ويستحيل أن تكون الأزمان الكثيرة ساعة يسيره، بل إذا صح أن العدم وقع على الكل، صح منتهاه إذ حده العدم وحواه، وتضمنه وغاياه، وأبطل الجميع وناهاه، وإذا ثبت فى المعقول أن هذا الجسم لا يكون إلا شيئاً بعد شئ، ولا يسكن كثيراً إلا بعد سكونه يسيرًا، صح ما قلنا به من مبتدأ السكون، وصح بصحته مبتدأ حدوث الجسم، إذ لم ينفك من هذا الحادث ولم يسبقه.

فإن قال : وما أنكرت من أن يكون تحرك قبل ذلك السكون بحركة لا نهاية لها؟

قيل، ولا قوة إلا بالله : أنكرنا ذلك؛ لأنه تحرك قبل السكون، فسبيل الحركة سبيل السكون فى الحدث.

ودليل آخر : إذا كان للحركة آخر ومنقطع، فلها أول ومبتدع، وذلك أن آخر الحركة التى قطعها السكون أقل القليل، وقد كان – بزعمك – أكثر الكثير، فخبرنى عن هذا الكثير أعدم كله أم بعضه، أم لم يعدم منه كل ولا بعض؟!.

فإن قلت : لم يعدم. أحلت. **وإن قلت** : بل عدم بعضه. أحلت؛ لأن الحركة لا يوجد منها شئ بعد السكون.

وإن قلت : بل عدم الكثير. ففى قولك : "عدم الكل". ما كفى[1]، وللكل ٧٩/أبعاض لم توجد/ آخر منها إلا بعد وجود أول، ولا وجد كثير منها، إلا بعد وجود قليل.

ودليل آخر؛ إذا قلت : إن قبل حركة سكونا، وقبل سكون حركة، إلى ما لا نهاية له. سألناك : هل يعنى بقولك : لا نهاية له. كل ما مضى وعدم منهما، أم تريد بعض ذلك أم تريد أيهما؟!.. فلا تجد مخرجا مما ذكرنا.

****

قال المهدى لدين الله الحسين بن القاسم، صلوات الله عليه : إذا لم يكن الجسم كائنا ما كان من الأشياء، لم ينفك من هذين الحالين، فهو محدث بأبين[2] البيان، وإذا كانت الأعراض لا توجد إلا فى الأجسام، وكان محالا أن يكون قبلها، فسبيلها فى الحدث سبيلها؛ لأنا نفينا أن يكون علة كون الإنسان وغيره من الحيوان، جسما أو عرضا؛ لأنهما محدثان، فلما بطل أن يكون علة كون الإنسان، وغيره من الحيوان، جسما أو عرضا أو عدما، **صح أن له صانعا قديما وهو الله** رب العالمين.

---

(١) فى أ : كفا.
(٢) فى أ : باين.

٢- باب الدلالة على صنع الله فى الحيوانات

قال المهدى لدين الله الحسين بن القاسم، صلوات الله عليه : **إن سأل سائل فقال : أخبرونى ما الدليل على الله، عز وجل ؟**

قيل له، ولا قوة إلا بالله : اعلم – أيها السائل – إن أقرب الأدلة إلى الإنسان نفسه، وذلك أنا نجد الإنسان بعد عدمه، فنعلم أن له موجداً/ أوجده بعد عدمه، لم يجد فى نفسه حكمة، ونجد عليه نعمه، ولا تكون الحكمة إلا من حكيم، ولا النعمة إلا من منعم كريم.

فإن قال : وما الحكمة التى فى الإنسان، وما النعمة التى عليه؟

قيل له، ولا قوة إلا بالله : أما الحكمة التى فيه، فالصنع الذى لا يكون إلا من صانع حكيم، وأما النعمة فالرزق المبسوط الذى لا يصح إلا من رازق كريم، وذلك أنا نظرنا الإنسان، فإذا هو نطفة من ماء مهين ميت قليل حقير غير سميع ولا بصير، ثم وجدناه بعد ذلك إنساناً حياً، حكيماً مدبرًا، سميعاً بصيرا، موصلاً مفصلاً، قد جعل كل معنى فيه لمعنى، ولا يجعل المعنى للمعنى إلا عالم بما صنع وبنى[1].

فأول ما نظرنا منه تكثيره بعد قلته، وقوته بعد ضعفه، وحياته بعد موته، وعلمه بعد جهله، فعلمنا – بيقين – أن هذه نعم محكمة، لا تكون إلا من حكيم عليم وتدبير، لا يكون إلا من مدبر قديم، ورحمة لا تكون إلا من رحيم.

---

(١) فى أ : بنا.

والدليل على ما ذكرنا من العلم والحكمة والرحمة، أن الرحمة هى الفضل والنعمة، وأن الكرم[1] هو البسط للمنافع عند الحاجة والفاقة، وأن ذلك لا يكون إلا من عالم حكيم؛ لأنه لم يعط عبيده ما أعطاهم إلا لعلمه بقافتهم، ولم يتكرم عليهم بإيجادهم، إلا لإتمام الحكمة فى خلقهم، ولم ينعم عليهم إلا تفضلاً ٨١/برزقهم، وذلك أنا نظرنا إلى ما جعل فيهم من الحياة[2] بعد موتهم/ فعلمنا أن الحياة من أكثر النعم، وأعظم الفضل وأكمل الكرم. ثم نظرنا إلى ما جعل فيهم من المفاصل المفصلة التى يصلح التدبير ولا يتم إلا بها، فجعل المفاصل للحركة والمسير، والقيام والقعود، والإقبال والإدبار؛ ولم يكن ذلك ليتم إلا بما جعل من الأبصار المضيئة المنيرة فى الليل والنهار، الهادية فى البر والبحار[3]، ولولا تلك النواظر لما تم التدبير، ولكان العمى[4] من أعظم المهالك والتدمير. ثم جعل الألسن الناطقة، وجعل الأسماع الواعية، وجعل العقول المميزة، التى لولا هى لهلك المخلوق، فجعلها لاجتلاب المنافع ونفى المضار، ومعرفة الخيرات والشرور، واستخراج عجائب الأمور.

ثم ركب الأجساد على المنعم واللذات والمعايش المقرونة بالحياة، من الأرزاق المبسوطة، المنزلة المجعولة، التى لا قوام لهم إلا بها، ولا غناء لهم أبدًا عنها، وعلم أن تلك الأغذية لا تتم إلا بالوصول إلى أجسادهم، ومباشرة بطونهم،

---

(١) فى أ : الكريم.

(٢) فى أ : الحيوة.

(٣) كان يظن القدماء أن الإبصار يتم عن طريق أشعة تخرج من العين، وتسقط على الأشياء فتبصرها.. حتى جاء الحسن بن الهيثم فصحح هذا التصور.. وكان أول من بين حقيقة الإبصار فى التاريخ الإنسانى.

(٤) أ : العما.

وأكبادهم، فجعلها مداخل اضطرهم إليها، وبناهم بناء عليها، وعلم أنه إن لم يجعل لذلك الغذاء مخارج، قبل كونه فى بطونهم؛ وإلا هلكوا ودمروا ولم ينموا ولم يكثروا، فقدم ذلك وجعله وركبه وفعله لعلمه بفاقتهم إليه، فركبهم وبناهم عليه، رحمة منه لهم، وتفضلا عليهم.

وعلم، عز وجل، أنهم لا ينمون ولا يكثرون، إلا بما جعل فى الإناث /٨٢ والذكور وما فى تناسلهم من التدبير/ وعجيب الصنع والتقدير، فجعل منهم إناثا وذكورا؛ ليكون للنسل أصولا وصنعا عجيبا جليلا، فجعل ذكور الأشياء قبل إناثها، لما أراد من جعل الحيوانات وإحداثها، ثم جعل فى الذكور والإناث من الشهوة، ما يكون سببا للإحداث، وجعل لذلك أماكنا غير مشتبهة، يصلح بعضها لبعض، بتقدير الحكيم المدبر الحى العليم، وجعل فى تلك الأماكن مسالك لنطف الذكور إلى أماكن الحكمة والتصوير.

فالفصل من الأصلاب إلى الأرحام، بتدبير ذى الجلال والإكرام، نطف أقرها الله بقدرته وأثبتها بمشيئته، إلى أجل معلوم ووقت من الأوقات مفهوم، به إخراج تلك النطف بعد نطوفيتها، وموتها أطفالا صغارا قد شق لهم أسماعا وأبصارا، وأخرجهم، سبحانه، من بطون أمهاتهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، ولا يقدرون للآفات والمضار دفعا ولا منعا، ولا يعقلون بصرا ولا سمعا، ولا يهتدون سبيلا، ولا يملكون عقولا.

وعلم، عز وجل، أنهم لا يقومون ولا يحيون ولا ينمون؛ إلا بما ركبهم عليه من الأغذية واللذات، وقوام الأجسام المجسمات، وأنهم يضعفون بصغرهم عن المآكل التى لا يصلح للأطفال، فجعل لهم قبل كونهم أغذية فى أجساد

أمهاتهم، لعلمه بضعهم وفاقتهم وجهله فى قلوبهن رحمة لهم فأحياهم بذلك وقواهم وكلفهم به، وأغناهم وأنبتهم به وأنماهم وأنعم بذلك وغذاهم وشد أسرهم ٨٣/وآزرهم وأعطاهم/ العقول فهداهم، ثم أمرهم ونهاهم، بعد أن بصرهم هداهم، فأى عجب أعجب مما ذكرنا، وأى كلمة أكمل مما به قلنا، وأى نعمة أسبغ أو أى حجة أبلغ مما ذكرنا من صنع ربنا وخالقنا وإلهنا ورازقنا؟!..

فبينما نحن نطف حقيرة أموات، إذ نحن على غاية الكمال من توصل الأجساد والأوصال، والحياة بعد موتنا، والتكثير بعد قلتنا، والعقول بعد غفلتنا، والحمد لله على ما امتن به علينا، وأسداه من النعم إلينا، ولا إله إلا هو جل جلاله، وظهرت نعمه وأفضاله، وسبحانه، عن شبه المخلوقين، وتبارك عما يقول العادلون، وينسب إليه الجاهلون، فلما نظرنا إلى هذه الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، علمنا أن الحكمة صفة الحكيم، لما فيها من بيان علم العليم، والصفة لا تكون إلا لموصوف؛ فمن هاهنا صح ما به قلنا.

ودليل آخر؛ إما أن يكون العقل شاهداً على أن فى هذه الحيوانات حكمة، وإما أن يكون شاهداً على أنه ليس فيها حكمة.

فإن قلت : إن العقل يشهد على أن ليس فيها حكمة. فهذا من أكبر المحال، وأقبح ما نطق به من المقال؛ لأن كل حكمة موجودة، ليس الأصل فيها إلا من الحيوان، وهو فى نفسه وخلقه وعقله وتركيبه أحكم من فعله وقوله.

وإن رجعت إلى الحق **فقلت** : بل فى الحيوانات ما لا ينكره عاقل، ولا يكابر فيه عالم ولا جاهل، لم يخل[1] العقل من أن يكون شاهدًا على أن هذه

---

(١) فى : يخلو.

٨٤/الحكمة من صفة حكيم أو شاهدا على أنها من صفة جاهل/ موات غير عالم أو شاهدا على أنها من صفة معدوم. فهذا محال؛ لأنك جعلت للعدم صفة، وهى الحكمة؛ فجعلت العدم حكيما، فأثبت موجودا، والعدم لا شئ، ولا شئ لا يوصف بالحكمة ولا الجهل، ولا يوصف بالتدبير ولا العقل أيضا.

فقد أوجبت الحق بإثباتك الصفة، وإذ لا تكون الصفة إلا لموصوف، ثم نقضت قولك بإثباتك للمعدوم، والعدم ليس بمجهول ولا معروف.

وإن قلت : إن الحكمة من صفة موات جاهل. فهذا ما لا يقول به من الحق عاقل، ولا يراه من الناس إلا غافل؛ لأن من صفة الموات الجهل وبطلان الحكمة والعقل، وما كان من الأشياء غافلا جاهلا، وكان عن التدبير خائرا غافلا؛ لم يكن حكيما ولا عاقلا، وما كان بالموت والغفلة موصوفا وكان بالعجز والجهل معروفا، فيستحيل أن يكون منه حكمة بالغة، ونعمة جليلة سابغة؛ لأن الحكمة هى الإحكام. والكرم والتفضل والإنعام، وإذا بطل أن يكون ذلك من العدم المعدوم، وبطل أن يكون موات غير عليم، صح الوجه الثالث، وهو الله العليم الحكيم.

ودليل آخر، إما أن تكون هذه الحكمة تولدت من طبائع قديمة حية مدبرة، وإما أن تكون تولدت من طبائع محدثة مصنوعة مدبرة، وإما أن تكون تولدت من العدم.

فإن قلت : إنها تولدت من العدم. أوجبت أنها معدومة ونفيت وجودها؛ لأن العدم ٨٥/لا يوجب وجودا؛ إذ هو غير موجود، ولا شئ سوى/ النفى مقصود.

وإن قلت : إن هذه الحكمة تولدت من طبائع محدثة. فالمحدث لأولها هو المحدث لآخرها، وفى هذا إثبات الخالق لها.

وإن قلت : إن هذه الحكمة تولدت من طبائع قديمة ميتة. فهذا محال؛ لأنها لا تخلو من أن تكون أوجدتها بعد العدم، أو هى كانت موجودة معها فى حال العدم.

فإن قلت : إنها كانت قديمة معها، ثم انفصلت عنها. فهذا محال؛ لأنا قد بينا حدثها وأوضحنا الدليل على حدوث فرعها وأصلها فيما تقدم من قولنا. وأيضا فإن فى الحكمة آثار صنع العالم الحكيم.

وإن قلت : إن هذه الطبائع الميتة أوجدت الحكمة بعد العدم. فهذا محال؛ لأنها لا تخلو من أحد وجهين: إما أن تكون أوجدتها بعلم، وإما أن تكون أوجدتها بجهل.

فإن قلت : إنها أوجدتها بعلم. فهذا محال؛ لأن الميت لا يعلم شيئا، ولا يكون العالم إلا حيا.

وإن قلت : إنها أوجدت الحكمة بجهل. فهذا محال؛ لأن الجاهل الميت لا يعقل، ولا يعى ولا يحسن ولا يسئ، ولا يحكم التدبير ولا يبرم الأمور.

وإن قلت : إن هذه الحكمة حدثت من علل قديمة حكيمة مدبرة. فهذا هو صفة الخالق، والخالق ليس يسمى عللا، وإنما هو الله الذى لا إله إلا هو العليم الحكيم.

ودليل آخر؛ إن العلل الميتة محدثة؛ لأن الموات ساكن، والساكن مقيم ٨٦/ لابث، واللابث لا يخلو من / أن يكون لبث وأقام وقتا طويلا، وأقام[1] وقتا قليلا.

---

(١) فى الأصل : وأقام.

فإن قلت : إنه لبث وقتا قليلا. أوجبت حدثه من قليل من الأزمان.

وإن قلت : إنه مقيم لابث منذ وقت طويل قديم. فهذا محال أن يكون الوقت قديما؛ لأن الأوقات هى الأزمان، والأزمان قد فنيت، ووقع الفناء على كل ما مضى منها فعدمت، ولم تعدم الأوقات والأزمان كلها إلا بعد حدوثها، ولم يعدم آخرها إلا بعد عدم أولها، وإذا كان للمقام أول وآخر، فقد صح حدث الجسم المقيم، إذ لم ينفك من المقام والأوقات، وما لم ينفك من سكون الساعات ولم يكن قبلها، فسبيله فى الحدث سبيلها.

وإن قلت : إن الأجسام كانت قبل الزمان. سألناك أكانت متحركة أو ساكنة؟

فإن قلت : لا متحركة ولا ساكنة. جحدتها ونفيتها.

وإن قلت : إنها كانت قبل الزمان غير منفكة من حركة أو سكون. لم يخل من أن تكون تحركت أو سكنت قليلا أو كثيرا.

فإن قلت : إنها تحركت أو سكنت كثيرا. فالكثير أوقات ودهور وأزمان وساعات، وفى ذلك إثبات ما قلنا به، من أن الأجسام لم تنفك مما ذكرنا من الأزمان.

وإن قلت : إنها تحركت أو سكنت أوقاتا قليلة. أوجبت أيضا أنها لم تنفك من قليل الأوقات، فكأنها لم تنفك من المحدثات، ولم تكن قبلها موجودات، وإذا لم ٨٧/تكن قبلها ولم تتقدمها، فهى محدثة معها، وإذا صح/ حدث الأجسام كلها، وصح حدث حركاتها وسكونها، لم تخل من أحد أربعة أوجه : إما أن تكون أحدثت أنفسها، وإما أن تكون حدثت هملا، وإما أن تكون حدثت من محدث قديم[1].

---

(١) هذه ثلاثة أوجه وليست أربعة.

فإن قلت : إنها أحدثت أنفسها. فهذا محال؛ لأنها كانت معدومة؛ فكيف تحـــدث أنفسها وهى غير موجودة، والفاعل لا يكون إلا موجودا غير معدوم؟

وإن قلت : إنها حدثت لعلة. لم تخل العلة من أحد وجهين : إما أن تكون جسما، وإما أن تكون عرضا، وقد بينا حدوث الجسم والعرض، ولو كانت المحدثات من محدثات؛ لكان فى ذلك دليل على رب السموات، إذ كل المحدثات لم تنفك – قط– من السكون والحركات، وإذا لم ينفك الكل من الحـــدث، صـــح بذلـــك الخـــالق المحدث.

ودليل آخر؛ لو كان كل محدث من محدث، لكان لذلك آخر، وما كان لـــه آخر فله أول، وما كان له آخر وأول، فقد صح حدث الجميع.

ودليل آخر؛ إذا كان للمحدثات آخر، لم يخل ما مضى من المحدثات مـــن أن يكون الآن كله موجودا، أو بعضه، أو كله معدوما.

- **فإن قلت** : عدم كله. أوجبت أنه عدم بعد حدثه، وصح عدمه كله بعد حدوثه كله.
- **وإن قلت** : **بل عدم بعضه**. جعلته على قسمين : قسم قد عدم، فناءها العـــدم بعد حدوثه، وأفقده بعد وجوده. وقسم حدث ثم هو الآن موجود كله.
- ٨٨/ **وإن قلت** : إنه الآن موجود كله. فقد ناهاه/ الوجـــود، وللكـــل نهايـــة وغاية.

ودليل آخر؛ إذا لم يكن شئ من الأشياء المحدثة كلها، تنفك من الحركة والسكون، فقد مضى للحركات والسكون أزمنة تضمنها الفناء، وفى ذلك من الكلام ما قد مضى، وفيه كفاية لمن اكتفى[1].

- **وإن قلت** : إن الجمادات حدثت فى البدء لا من علة ولا من محدث. أوجبت عدمها؛ لأنها إذا كانت عدما لم تخل من أن تكون وجدت من قبل العدم، أو وجدت لسبب.
- **فإن قلت** : إنها وجدت للعدم. فهذا محال؛ لأن العدم لا شئ، فلا شئ لا يكون سببا للأشياء؛ لأن السبب لا يكون معدوما؛ لأن العدم نفى الأسباب.
- **وإن قلت** : إنها حدثت لسبب. لم يخل ذلك السبب من أحد وجهين : إما أن يكون قديما، وإما أن يكون محدثا.
- **فإن قلت** : إنه محدث. فالمحدث مخلوق، وليس كلامنا إلا فى المخلوق، لم خلق، وما سببه، وما علته.
- **وإن قلت** : إن السبب الذى أوجد الخلق قديما. أصبت ورشدت وعرفت الخالق.

ودليل آخر؛ لا يعدو هذه الحكمة، التى قدمنا ذكرها، من أحد وجهين لا ثالث لهما : إما أن تكون حكمة قديمة، وإما أن تكون حكمة محدثة.

- **فإن قلت** : إنها قديمة. فهذا محال؛ لأنا قد بينا حدثها.
- **وإن قلت** : إنها محدثة. لم تخل من أن تكون حدثت بإحداث الحكيم أو بالإهمال.

---

(١) فى أ : اكتفا.

- ٨٩/ **فإن قلت** : حدثت بالإهمال. فهذا من أكبر المحال لأن/ الـــهمل هـــو العدم، والعدم لا يوجب كون الحكمة ولا غيرها.

- **وإن قلت** : بل حدثت بإحداث الحكيم. صدقت وكان ذلك كَما ذكرت.

ودليل آخر، إما أن تكون أردتها بالقدم فى نفسها، فهذا باطل، لما قدمنـا من الدليل على حدثها، وإن كنت تريد سببها الذى أوجدها – فلعمرى – إن سببها قديم، وهو خالقها وربها.

ودليل آخر؛ لم يختلف أحد فى حدث ظهور تمام هذه الحكمـــة، وإنمـــا اختلف فى سببَها وأصلها، وكيفية ظهورها وبقائها[1]، فأجمع الكل أن سببها شـئ قديم، ثم اختلفوا فقال بعضهم : طبع موات. وقال بعضهم : رب حي. ففسدَ قول الملحدين الكفار الملاعب؛ لأن الموات لا يكون سببا للحيوانات، وفسد قولـــهم – أيضا – لأن الموات ليس بحكيم، والحكمة صفة للعليم، وفسد قولهم – أيضـــا – لأن الجود صفة جواد، والموات لا يعى ولا يعقل، فكيف إلى أن يجود ويتكـــرم، والكرم والجود لا يكونان إلا من كريم متفضل رحيم؟..

ودليل آخر؛ إنما سميت الحكمة حكمة؛ لأنها محكمـــة؛ والحكيـــم فـــهو المتقن المبرم، والإتقان والإبرام فلا يكونان إلا بعلم وإحكام، والعلم والإحكـــام لا يكونان إلا من الحكيم العلام، والنعمة لا تكون إلا من المنعام[2]، بعلمـــه بفاقعـــة

---

(١) فى أ : وبباها.. وأشار المصحح أنها سهوها، ولكن أثبتناها بأعلى على ماسبق.
(٢) أى : المفضال.

٩٠/ المحكم إلى الإحكام، ولا يبرم المبرمات/ إلا عالم بحاجتها إلى الإبـــرام[١]؛ وذلك كله فلا يكون إلا من ذى الجلال والإكرام.

ودليل آخر؛ لابد أن تضاف هذه الحكمة إلى حكيم، أو تضاف إلى غـــير حكيم؛ فأيهما شهد بجوازه العقل جاز، فالعقل يشهد بـــالجواز أن تضـــاف إلـــى الحكيم، ولا يجوز فى العقل أن تضاف الحكمة إلى غير حكيم.

ودليل آخر؛ لابد أن تضاف هذه الحكمة إلى موات محدث، وإلى قديـــم حى محدث، فالعقل يشهد بإضافتها إلى القديم المحدث الحى، ولا يشهد بإضافتـــها إلى الميت المحدث أصلا.

ودليل آخر؛ إما أن تكون هذه الحكمة أحكمت، وبسطت النعمة وأنعمت، بعلم الحى أو بجهل الميت.

- **فإن قلت : بالجهل. فالجهل لا يوجب خيرا.**
- **وإن قلت : بالعلم. فالعلم صفة عالم.**

ودليل آخر؛ إما أن تكون هذه الحكمة تمت بفعل قادر حـــى، وإمـــا أن تكون تمت بفعل ميت عاجز.

- فإن قلت : بفعل الميت العاجز. فالموت والعجز لا يتمان خيرا.
- وإن قلت : بل بفعل قادر حى. صدقت؛ لأن الفعل لا يتـــم إلا مـــن الحـــى القادر.

---

(١) أى : إحكام الأمر.

ودليل آخر؛ إما أن يكون التوصيل والتفصيل من فعل موصل مفصل، وإما أن يكون من فعل ميت عاقل، فالميت العاقل لا يوجب توصيل أوصال، ولا تفصيل مفاصل.

٩١/ودليل آخر؛ إما أن يكون جعل الشئ لمصلحة الشئ من فعل مصلح فاعل/ وإما أن يكون من فعل ميت عاقل، فالعقل يشهد أن الإصلاح من المصلح الجاعل.

ودليل آخر؛ إما أن يكون الرزق للمرزوقين من الميت العاقل، وإما أن يكون من العالم الحى الرازق، فالعقل يشهد أن الرزق لا يكون إلا من الرزاق الخالق، ويستحيل أن يكون ذلك من غير خالق.

ودليل آخر؛ إما أن يكون الفضل من الميت، وإما أن يكون من حى فاضل، فالعقل يشهد أن الموات ليس بفاضل.

ودليل آخر؛ إما أن يكون الهدى من هاد، وإما أن يكون من ميت، فالعقل يشهد أن الميت ليس بهاد ولا مرشد ولا راشد، ولا هدى أهدى من العقول المركبة فى كل عاقل.

ودليل آخر؛ إما أن يكون التفهم من مفهم، وإما أن يكون من موات، فالموات لا يفهم، فكيف إلى أن يفهم وليس بفاهم؟

ودليل آخر؛ إما أن يكون التعليم من ميت جاهل، وإما أن يكون من حى عالم، وقد وجدنا هذه الحيوانات معملة للخيرات، ملهمة لنفى المهلكات، فالعقل

يشهد أن التعليم حادث، وأنه من معلم عليم، إذ العقل يشهد أن التعليم من صفة عالم، ويشهد أن التعليم لا يكون من فعل جاهل ميت عاقل، وإن كان التعليم من غير عالم، وكان من غير جاهل، فهذا العدم بعينه، والعدم لا يوجب شيئا.

٩٢/ودليل آخر؛ أنا نظرنا إلى جميع الحيوانات، فإذا هى مهدية/ إلى كفالة أولادها، وإلى طلب مناكحها ومآكلها، ومشاربها ومنافعها ومصالحها، مفهمة للنفور عن مضارها ومهالكها. فعلمنا أن الهداية هى الأدلة، والأدلة لا تخلو من أن تكون من علم حى، أو من صنع ميت، فالعقل يشهد أن الدليل لا يكون ميتا، ويشهد أن الهادى لا يكون جاهلا.

ودليل آخر؛ إما أن تكون هذه العقول المركبة الدالة من مركب دال، وإما أن تكون من ميت، فالعقل يشهد أن الميت لا يدل على خير ولا شر، ويشهد أن العقل من أجل العلوم، والعلم لا يكون من فعل الأموات، والعقل يشهد أن العلم من فعل عالم.

- **فإن قلت** : إن هذا العلم الحادث فى الصدور، المحيط بجميع الأمور، المميز بين الخيرات والشرور، من فعل طبع ميت. فالعقل يشهد أن الميت لا يصنع العلم.
- **وإن قلت** : إنه من فعل لا شئ. ناقضت قولك؛ لأن لا شئ لا[1] يصنع علما ولا جهلا؛ لأن لا شئ عدم والعدم ليس بجاهل[2] ولا عالم ولا حى ولا ميت، وإنما هو نفى، والنفى فهو كلامنا ونفينا.

---

(١) ليست فى الأصل.
(٢) فى أ: بجهل.

- **وإن قلت** : بل هو من فعل عالم. صدقت، وكان ذلك ضرورة، كما ذكرت.
- **وإن قلت** : إن هذا العلم لا من حى ولا من ميت، ولا من شئ أصـــلا. لـــم تخل من أن تكون أوجبت بهذا القول عدمه أو قدمه، فإن كنت أوجبت عدمـــه ٩٣/كذلك[١] وجوده، وإن كنت أردت قدمه كذلك/ حدثه؟

ودليل آخر : إن كنت تريد بهذا القول نفى الخالق، فكيف تثبت الخلـــق بغير خالق؟

- **فإن قلت** : من أجل أن الخلق قديم. أحلت؛ لأنا قد أوضحنا حدثه.
- **وإن قلت** : من أجل علل قديمة. فقد أوضحنا لك أن العدم لا شئ، ولا شـــئ نفى، والنفى لا يوجب إثبات شئ.
- **وإن قلت** : من أجل الحدث. فالحدث من المحدث إذ ليس إلا المحدث الفاعل أو العدم، فلما انتفى[٢] العدم، ثبت الخالق، تبارك وتعالى.

---

(١) فى أ : أكذلك.. وكذا التى بعدها.
(٢) فى أ : انتفا.

٣- باب الدلالة على نفى الصفات عن الخالق والدليل على قدمه

قال المهدى لدين الله الحسين بن القاسم، عليه السلام: فلما صح أن للأشياء خالقاً محدثاً جاعلاً، صح أنه بخلافها من جميع المعانى، وصح أنه لا يشبهها فى الذات ولا الفعل ولا الصفات. ألا ترى أنه لو أشبهها فى بعض الشئ، لكان ذلك البعض مثلها فى الحدث، والحدث لا يتعلق بقديم؛ لأنه لا يوجد متعلق إلا فى كله أو بعضه، وللكل والبعض نهاية؛ لأن الكل محدود، والبعض لا يتعلق إلا فى متحرك أو ساكن، والمتحرك والساكن محدثان.

ولو أشبهها فى كل شئ لكان محدثاً مثلها، و لو كان محدثاً لما كان رباً؛ ٩٤/لأن المحدث مربوب، والمربوب مخلوق/ ولا فضل لمخلوق على مخلوق فى معنى الحدث بعد العدم، فوجب أن الخالق لا يشبه المخلوق، وفى ذلك من الأدلة ما يكثر لو شرحناه ويطول به الكتاب لو ذكرناه، فإن قال قائل ملحد، أو سأل سائل مسترشد : فما تنكرون من أن يكون الخالق مخلوقاً، وخالقه مخلوق إلى ما لا نهاية؟..

قيل ، ولا قوة إلا بالله : أنكرنا ذلك؛ لأنك جعلت الكل مخلوقين، ويستحيل أن يكون المخلوق رباً لمخلوق، إذ هما سواء فى الحدث لا فرق بينهما.

ودليل آخر : إما أن تكون هذه المحدثات أحدثت و فعلت بأمر قديم أو بأنفسها.

- **فإن قلت** : بأنفسها. فهذا محال؛ لأن المحدث مربوب، والمربوب لا فضل له على المربوبات، إذ سبيله سبيل المحدثات.
- **وإن قلت** : إن الأصل هو القديم. أثبت الخالق، سبحانه.

ودليل آخر؛ إذا كان الخالق آخر المخلوقات، وكان محدثاً بعد محدثات، لم يخل ما قبله من المحدثات من أحد وجهين : إما أن يكون[1] كلهن مثله فى الحدث، وإما أن يكون بعضهن محدثاً، وبعضهن قديماً.

- **فإن قلت** : كلهن محدثات. أوجبت لهن محدثاً قديماً بخلافهن أحدثهن وخلقهن.
- **وإن قلت** : إن بعضهن محدث؛ وبعضهن قديم. أو جبت أنهن على قسمين : قسم محدث مخلوق، وقسم خالق قديم، والخالق لا يسمى قسماً ولا بعضاً.

٩٥/ ودليل آخر؛ إذا كان/ الخالق -بزعمك- مخلوقاً، وقبله خالق قديم، وخالق إلى ما لا نهاية له، فقد جعلته آخر الخالقين، وفى هذا تناقض، أن يكون المحدث قديماً، والخالق مخلوقاً، وإذا كان لهم آخر فهم أول، ويستحيل آخر بلا أول.

ودليل آخر؛ لم يقع كلامك إلا على مخلوقات، ولابد للمخلوقات من خالق قديم.

ودليل آخر؛ إما أن يكون عنيت بقولك : لا نهاية. تريد الكل من المحدثات أو البعض، أو لم تعن كلاً ولا بعضاً وفى هذا ما كفى[2].

---

(١) فى أ : يكن.
(٢) فى أ : كفا.

ودليل آخر؛ إذا كان هذا الخالق للمخلوقات آخر المخلوقات، لم يخل من قبله من الخالقين المخلوقين من أن يكون الآن كلهم موجوين أو كلهم معدومين أو بعضهم موجودا، أو بعضهم معدوما.

- **فإن قلت** : إن الكل موجود. فللكل نهاية وغاية، إذ لم تبق منهم شئ، حتى هو الآن، موجود لم يعدم منهم شئ، وإذا صح وجود الكل، وصح حدث الكل، صح المحدث الخالق الأول القديم، والله الرحمن الرحيم، الواحد الحكيم العليم.
- **وإن قلت** : إن الكل معدوم الآن. فللكل نهاية؛ لأن ما صح حدثه كله وصح عدمه كله بعد وجوده وحدوثه، صح محدثه بعد العدم ومغيبه، وهو الله خالقه وبارئه.
- **وإن قلت** : إن البعض موجود، والبعض معدوم. جعلتها مقسمة قسمين : ٩٦/قسم هو الآن موجود كله/ مخلوق، وقسم كله قد عدم بعد حدوثه، ومضى بعد إيجاد موجوده ومحدثه، وكلا القسمين لم يخل من الحدوث، والله محدثهما وخالقهما، ومفنى ما مضى بمشيئته، ومبقى ما بقى برحمته.
- **وإن قال** : إن قبل كل شئ شيئ شيئا[1].
- **قيل له** : أتعنى بقولك : لا نهاية له. كل ما هو الآن موجود أو كل ما هو الآن معدوم، أو ما بعضه معدوم وبعضه موجود؟ فلا يجد مخرجا إلا أن يقول : لم أعن شيئا. فيبطل جميع الأشياء. أو يقول : عنيت بالعدم بعض المعدوم. فينقض قوله؛ لأنه إذا أوجب العدم على قسم، ثم قال : عنيت بعضه. فقد نقض قوله؛ لأنه لا فضل لبعض المعدوم على بعض، إذ كله

---

(١) عبارة غامضة، ويبدو أن نقصا فيها، لم نستطع معرفته

معدوم، وكذلك إن عن[1] بالوجود بعض الموجود، فقد نقض قوله؛ لان الوجود وجود كله، والعدم عدم كله، وأين ما ذهب لم يجد مذهبا، ما يذهب إليه نهاية للأشياء.

ودليل آخر؛ إن هذه الأرباب المخلوقة التى – زعمت – محدثة، وإذا كانت محدثة، فيستحيل قولك : خلقت أمثالها. لأن المخلوق لا يقدر على خالق مثله، ويستحيل أن تكون الأجسام من فعله.

٤- باب الدلالة على نفى الصفات عن الله فاطر السموات

٩٧/ قال المهدى لدين الله الحسين بن القاسم، صلوات الله عليه : إن سأل سائل فقال : **هل/ لله صفات؟**

- قيل له، ولا قوة إلا بالله : مسألتك تحتمل وجهين : إما تكون أردت أن له صفات غيره، بها علم وقدر، وإما أن تكون أردت أن له صفات هى هو[2].
- فإن قلت : إن معه صفات غيره بها قدر وعلم. فهذا محال أن يكون معه فى القدم غيره، أو يكون – أيضا – محتاجا إلى غيره.

ودليل آخر؛ **لو كان له صفات غيره**، لم تخل تلك الصفات من أحد وجهين : إما أن تكون متعلقة به، وإما أن تكون مباينة له منفصلة عنه.

---

(١) فى أ : عنا.
(٢) فى ب : هوه.

- **فإن قلت** : إنها متعقلة به، جعلته محلاً وموضوعاً، والمحـــل لا يكـون إلا مكاناً، والمكان لا يكون إلا جسماً.

ودليل آخر؛ لا يخلو من أن تكون متعلقة بجميعه فيكون له كل، وأمـا أن تكون متعقلة ببعضه، فيكون جزءً من جزء خلا من الحلول، وجـــزء محلـول، والكل والبعض لا يكون إلا مفترقاً أو مجتمعاً، والمفترق والمجتمع لا يكـون إلا من الأجسام؛ لأن المفترق مفصل لابد له من مفصل والمجتمع موصل لابد لـــه من موصل، والمجتمع والمفترق لا يكون إلا متحركاً أو ساكناً، وقـد أوضحنـا حدث المتحرك والساكن، فيما تقدم من كلامنا.

- **وإن قلت** : إن له صفات هى هو. أصبت فى قولك؛ لأنه واحد ليـس معـه شئ يعلم به ولا يقدر، ولكنه غنى حكيم عالم قادر حى بغير معان سواه.
- **فإن قال** : من أين علمتم أنه حى؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : دلنا على أنه حى، أنا نظرنا إلى صنعه، فإذا هـو /٩٨ محكم متقن،والإحكام لا يكون إلا/ من حكيم، والحكيم لا يكون ميتـاً[1]؛ لأن الميت لا يعقل ولا يعى[2] ولا يحسن ولا يسئ.
- **فإن قال** : من أين علمتم أنه عالم؟
- **قيل له** ، ولا قوة إلا بالله : لأنا نظرنا إلى إحكام الصنع فإذا هو دليل علـى أنه من غير جاهل؛ لأن الجاهل جائر، والفـاعل لا يفعـل إلا بعـد علمـه بالمفعول.

---

(١) فى الأصل : إلا ميتا.
(٢) فى أ : بقى.

ن فعل بجهل ؟

- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : أنكرنا ذلك؛ لأنا نظرنا إلى الفاعِل بالجهل، فلم يخل عندنا من أن يكون أيقن الصنع وأحكمه بفكر وذكر بعد النسيان. وإما أن يكون فعل ذلك بعلم لم يسبقه سهو ولا نقصان.
- **فإن قلت** : إنه فعل ذلك بخاطر فكر بعد جهل. فهذا محال؛ لأن الخاطر من صفة مخلوق عاجز غير قادر؛ لأن الذكر عرض عارض، لا يكون إلا في جسم متحرك أو ساكن كل أو بعض، وكذلك النسيان فهو عرض يحل القلوب، وذلك أولى[1] ما ينزه عنه علام الغيوب.
- **وإن قلت** : إنه فعل ذلك، وهو عالم. أصبت، وكان ذلك أحسن ما ذكرت، وكان الموصوف بالعلم أولى[2] من وصفت.
- **فإن قال** : من أين علمتم أنه قادر؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : لأنا نظرنا إلى الصنع، فإذا هو مخترع من غير أصل ولابداء[3]. فعلمنا أنه من فعل قادر؛ لأن العاجز لا يصنع الشئ من غير أصل ولا بدء، وقد بينا في أول كلامنا حدث الأشياء من غير شئ؛ ٩٩/ ٩٩/ ولأن العجز عرض لابد أن/ يكون في الكل والبعض، أو في الطول أو في العرض.
- **فإن قال قائل** : فكيف يعقل شئ ليس بجسم ولا عرض، ولا له كل ولا بعض، ولا طول ولا عرض؟

---

(١) في أ : أولا.
(٢) في أ : أولا.
(٣) في ب : بدوء.

- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : يعقل بما أظهر من صنعة الجليل، الذى لا تمتنع منه العقول، ولا توجد إلى[1] دفعه سبيل.
- **فإن قال : فكيف يعتذر بألا نراه؟**
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : اعلم أيها السائل إنا لو رأيناه لما عبدناه، وذلك أن الأبصار لا تقع إلا مفترق أو مجتمع، ولم يستدل على الله إلا بالمفترق والمجتمع؛ لأنهما محدثان، ولابد للمحدث من خالق أحدثه، ولابد أن يكون بخلافه من جميع المعانى.
- **فإن قال** : فبم عرفته ؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : بما هو أولى وأحق من الأبصار، وأصدق من جميع الأخيار.
- **فإن قال** : وما ذلك ؟
- **قيل له** ، ولا قوة إلا بالله : **ذلك العقل** الذى لا يجوز عليه المحال، ولا يقبل ما فسد من المقال، فلو أدركنا صنع جميع الأشياء مشاهدة رأى أعيننا، ما كان ذلك أبدا مثل العقل عندنا.

فالحمد لله الذى هدانا إلى معرفته، وعلمنا ما يستدل به على حكمته ووهب لنا التمييز برحمته، فلقد جاد علينا من العقول، بما لا نؤدى شكره، فالحمد لله الذى ضمن قلوبنا نوره، ونسأل الله أن يجعله آمرا لنا بالخيرات، وزاجرا عن السيئات، وأن ينجينا به من الموبقات، وينتقذنا به من المهلكات.

---

(١) فى أ : تصحيح من الهامش وفى صلبها : إلا.

١٠٠/ فكم محجوج به لم ينتفع بضياء بهجته، ولم ينف بـــه حنـــدس[١]/ ظلمته، ولم يخرج به من معصيته، ولم يطلب به رضى الله فيِ آخرته، وصرفـه فى أهلك مهالكه، وسلك به بشر مسالكه – فلعمرى – وما أتينا من قبل عقولنـــا، ولكن من سوء أفعالنا وظنوننا، فنسأل الله المغفرة، لما تقدم من ذنوبنا.

***

٥باب الدلالة على التعبد

قال المِهدى لدين الله الحسين بن القاسم، صلـــوات الله عليـــه، إن ســـأل سائل، فقال : **ما الدليل على التعبد ؟**

قيل له، ولا قوة إلا بالله : اعلم أيها السائل، أن الله ركب الاستطاعة فى العبـــاد والشهوة، فلم يكن بد من صرف الاستطاعة فى خير أو شـــر، فتعبدهـــم بفعـــل الخيرات وترك الفاحشات، إذ الحكيم لا يحب الفساد.

- **فإن قال :** ولم ركب فيهم الاستطاعة؟
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله : لأن الاستطاعة هى القدرة، والقـــدرة خـــير مـــن العجز، والعقول هى العلم، والعلم أفضل من الجهل.
- **فإن قال :** فلم كلفهم ما يستثقلون ؟
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله : للفرق بين المطيعين والعاصين.
- **فإن قال :** ولم فرق بين المطيعين والعاصين؟
- قيل له، ولا قوة إلا بالله : ليميز بين الخبيث والطيب، إذ ليـــس مـــن صفـــة الحكيم أن يجعل المفسد والمصلح سواء فى محل واحد.

---

(١) حندس : شدة الظلمة.

- **فإن قال** : فلم خلقهم وقد علم بإفسادهم؟
- ١٠١/ قيل له، ولا قوة إلا/ بالله؛ لأن خلقه لهم حسن وفعلهم قبيح، ولم يكن الحكيم ليترك فعل الحسن من صنعه لقبح فعل غيره.
- **فإن قال** : فما الدليل على البعث ؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : الدليل على ذلك أن الحكيم لا يخلق الخلق، ويظهر الحكمة إلا للبقاء؛ لأن الفناء بالكلية ليس من الحكمة، وإذا لم يكن بد من أمر ونهى، فلابد من مأمور مطيع وعاص، وإذا لم يكن بد من الطاعة والمعصية، فلابد من الثواب والعقاب، وإذا لم يكن بد من الثواب والعقاب، ولم يكن ذلك فى هذه الدار، فلابد منه فى غيرها، وإذا لم يكن بد من التعبد، ولم يكن ذلك إلا بأمر ونهى، فلابد من رسول.
- **فإن قال** : فلم خلقهم فى بدء المعنى؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : لأن إظهار الحكمة من صفات الحكيم.
- **(فإن قال** : ولم يظهر الحكمة؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : لأن إظهار ما حسن أفضل)[١].
- **فإن قال** : ولم يظهر الحسن؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : لأن إظهار الحسن خير من تركه.
- **فإن قال** : ومن أين كان إظهار الحسن خير من تركه؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : لأنه لم يكن بد من أحد المعنيين : إما تركه وإما فعله، فتركه ليس من صفة الحكيم، وفعله أولى[٢] بالحكمة.

---

(١) ما بين الأقواس : ليس فى أ.
(٢) فى أ : أولا.

- **فإن قال** : فمن أين جاز الشرع ؟
- قيل له، ولا قوة إلا بالله : من قبل التعبد؛ لأن الشرع هو نفس العبادة ١٠٢/والبلوى[١] التى بها يفرق بين من أحسن وأساء./
- **فإن قال** : فمن أين جاز أن يتنبأ بعض الخلق دون بعض؟
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله : لأن النبوة ثواب وتفضيل، والثواب والتفضيل لا يكونان إلا بفعل الطاعة والصبر على المحنة.
- **فإن قال** : فلم ختم النبوة **بمحمد**، صلى الله عليه وآله وسلم.
- **قيل له** ، ولا قوة إلا بالله : لأنه لم يخرج من الحكمة إذ جعله نذير الجميع الباقين وحَجة إلى يوم حشر العالمين.
- **فإن قال** : ولم جاز أن يكون الميت حجة على الأحياء المتعبدين؟
- **قيل له** : ولا وقوة إلا بالله : لأنه أتى[٢] بالتعبد والآيات والقرآن الحكيم والأئمة الهادون مترجمون عنه، والعقول شاهدة مع ذلك على المخلوقين وكل ذلك، فلم نعدم لعدمه، صلى الله عليه وآله وسلم.
- **فإن قال** : فهل **الإمامة** أصل فى المعقول؟
- **قيل له، ولا وقوة إلا بالله** : نعم، أصل الإمامة فى المعقول؛ لأن الحكيم قد علم بأنه لابد من الاختلاف بين المخلوقين، فجعل فى كل زمان إماماً حياً، مترجماً لغوامض الأمور، مبيناً للخيرات من الشرور، ولا يعدم ذلك فى كل قرن من القرون، إما ظاهرًا جليًا، أو مغموراً خفيًا.
- **فإن قال** : وما الظاهر الخلق، والمغمور الخفى؟

---

(١) فى أ : البلوا.
(٢) أ : أنا.

- **قيل له، ولا قوة إلا بالله :** أما الظاهر فالسابق المنذر لجميع الخلائق، والشاهد لسلفه المصلح لله فى عباده وبلاده، وأما المغمور فالمقتصد المحتج ١٠٣/ لله فى جميع العباد، الآمر بالمعروف/ والناهى عن الفساد بغير قيام ولا جهاد.
- **فإن قال :** فهل الإمامة فى أهل بيت دون غيرهم. أم هى فى جميع الناس كلهم؟
- **قيل له، ولا قوة إلا بالله :** بل هى فى أهل بيت معروفين مخصوصين، بالفضل، مشهورين، معلومين غير مجهولين.
- **فإن قلت :** ومن أولئك ؟
- **قيل له ،** ولا قوة إلا بالله : **أولئك نسل البتول[1]، وأقرب قرابة الرسول.**
- **فإن قال :** فهل لهذه الحقيقة أصل فى المعقول؟
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله : نعم، أصل ذلك فى العقول، وبعد ذلك فى محكم التنزل، ووحى الواحد الجليل.
- **فإن قال :** وكيف نعقل أن تكون الإمامة فى قوم دون سائر الأنام؟
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله : لأن الله، عز وجل، حكيم، والحكيم لا يحب الفساد، ولا فساد أعظيم من أن يجعل دينه فى أيدى الخلائق، وأمره ونهيه، وحدوده وحلاله وحرامه، ووعده ووعيده، وحجته وأحكامه، فيهمل الكل ويلبس عليهم دينهم إذا جعل الإمامة فى جميعهم، ولم يكن ذلك فى قوم بأعيانهم،

---

(١) إشارة للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله، ﷺ، ونسلها الحسن والحسين، رضى الله عنهما.

مخصوصين بذلك من دون غيرهم، حتى لا تختلف فيهم، فهذا في المعقول[1].

وأما في الكتاب فقول الله، عز وجل، يدل على أصل الإمامة، وكذلك في السنة المجمع عليها عند جميع الأمة، فأما وجوبها في الكتاب فقول الله، عز وجل، لنبيه، صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾[2]، فبين أن لكل قوم هادياً، فاختلفوا في الهادي من هو، وممن هو، فبين الله في ذلك ١٠٤/ بفضله/ فيما نزل من محكم قوله، فقال، عز من قائل :﴿**قد أنزل الله إليكم ذكرًا رسولاً**﴾[3] فسمى[4] رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم : ذكرًا، ثم أمر رسول الله فقال، عز من قائل : ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[5] وأهل الذكر فهم آل محمد، عليهم السلام.

وفي ذلك ما يقول، عز من قائل، لنبيه المصطفى، صلى الله عليه وآله وسلم؛ فيما نزل من الفرقان إليه: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى**﴾[6]، فافترض مودتهم على الخلق فرضاً، وأمر نبيه، صلى الله عليه

---

(١) الزيدية رغم ذلك لا يعتمدون الدولة الدينية أو النظم الأوتوقراطية أو الثيوقراطية أو الأرستقراطية أو الديكتاتورية في الحكم.. ولا يتعدى الأمر عندهم جعل الإمامة في أولاد الحسن والحسن لاعتقادهم في أن هؤلاء أكثر الناس رعاية لحقوق الإمامة، وهو أمر مردود عليه من وجوه.. وإن كان لا يخلو من وجاهة بالنسبة لهم.. والإمامة عندهم نظام سياسي أكثر من كونه دينياً كالروافض.

(٢) سورة الرعد : آية٧ .

(٣) سورة الطلاق : آية ١٠ .

(٤) في أ : سما.

(٥) سورة النحل : آية ٤٣ .

(٦) سورة الشورى : آية ٢٣ .

وآله؛ بأن يأمر الناس بذلك أمرًا ، فهذا فى الكتاب المبين، وفيه كفايـــة لجميـع المسلمين.

غير أنا سنذكر أيضاً بعض ما ذكر الرسول، مما لا تنكره العقول، مثـل قوله،ﷺ :"**إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا كتـاب الله وعترتى أهل بيتى، إن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يفترقا حتـى يردا على الحوض**"(١).

وأما فى **الإجماع** فأجمعت الأمة كلها على بيته، صلى الله عليه وآله، أنه قال :"**الحق ما أجمعت عليه الأمة والباطل ما اختلفت فيه**"(٢). ووجدنـا الناس كلهم مجمعين على إمامة أمير المؤمنين ونسله فى أصل الإجماع، وأصـل الإجماع أن الناس أجمعوا كلهم على جواز الإمامة فى آل الرسول، واختلفوا فـى غيرهم.

فالحق ما أجمعوا عليه من جواز الإمامة فى آل بيتـهم، والبـاطل مـا اختلفوا فيه من إمامة

غيرهم؛ لأن الأمة خمس فرق، وهم : الشيعة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، /١٠٥/ والعامة/

- **فأما الشيعة** فقالت : الإمامة لآل على دون غيرهم.

---

(١) الحديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير.. وذكره السـيوطى فى الجامع الصغير؛ ١/١٠٤.. وهو مشهور عند أهل السنة والشيعة.

(٢)رواه الترمذى، ٤/٤٠٥ "باب ما جاء فى لزوم الجماعة، كتاب الفتن" ، حديـث (٢١٦٧)، وأبو داود ٤/٩٦، "باب ١، كتاب الفتن والملاحم" حديث (٤٢٥٢)، وابن ماجة، ٢/١٣٠٣ حديث (٣٩٥٠) .

- **وأما المعتزلة والخوارج**، فزعموا أنها فى الناس كلهم، ومن أجازهـــا فـــى الناس، فقد أجازها فى أهل البيت، إذ هم خير الناس.
- **وأما العامة والمرجئة**، فزعموا أن الإمامة فى قريش، ومن أجاز الإمامة فى قريش فقد أجازها فى آل محمد، عليهم السلام، إذ هم خير قريش، وصلى الله على محمد النبى، وعلى آله وسلم تسليماً.

يتلوه كتاب الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين وهو الخامس

obeikandl.com